

## شخصية الطائي

إتماماً للبحث والتحقيق في بديعية الحلبي وشخصيته الشاعرة، لا بد لنا - هنا - من أن نمرّ على شيء مما يتعلق بحياة هذا الرجل واتجاهه الشعري، في عصره. فالحلبي، هو عبدالعزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر بن أبي العزبن سرايا بن باقي بن عبدالله بن العريض السنبي الطائي صفي الدين<sup>(١)</sup>. فهو عربي أرومة، من سنن الطائية.

ولد صفي الدين الحلبي - كما يقول الكتبي -: «يوم الجمعة، خامس شهر ربيع الآخر، سنة سبع وسبعين وستمئة»<sup>(٢)</sup>، في مدينة الحلة - في العراق -، في أسرة من (سنن)، فرع من قبيلة طيء العربية، وكان أعمامه وأخواله ممن يتزعمون في سنن، ولهم مواقع ومعارك مشهورة كانوا يبلون فيها البلاء الحسن، ولذلك تغنى الشاعر بمفاخر أخواله وكان على رأسهم جلال الدين بن المحاسن الذي نظم فيه وهو صبي جملةً من القصائد يحرضه على خوض المعارك، ومن ذلك قوله - وهو في صباه - يحرض خاله الصدر جلال الدين بن محاسن على أخذ ثأره من أعدائه في إحدى الوقائع:

ألست ترى ما في العيون من السقم      لقد نحل المعنى المدفق من جسمي  
وأضعف ما بي بالخصور من الضنا      على أنها من ظلمها غصبت قسمي

---

(١) انظر في ترجمته: في «الدرر الكامنة»: ٣٦٩-٣٧١/٢، و«البلغة»: ٩٠-١٠٠، و«فوات الوفيات»: ٥٧٩-٥٩٤/١، و«النجوم الزاهرة»: ٢٣٨/١٠، و«ريحانة الأدباء»: ٣١٢/٣، و«سفينة البحار»: ٣٧/٢، و«شعراء الحلة»: ٢٧٠/٣، و«روضات الجنات»: ٨٣-٨٠/٥ وغيرها.  
(٢) «فوات الوفيات»: ٥٨٠/١.

ثم يقول بعد هذا الغزل متخلصاً:

ألم تشهدي أنني أمثل للعدى      فكم طمعوا في وحدتي فرميتهم  
فتسهر خوفاً أن تراني في اللحم      بأضيق من سمٍّ وأقتل من سمٍّ

.....

ولو جحدوا فعلي مخافة شامتٍ      فكيف ولم ينسب زعيم لسنسب  
لثمَّ عليهم في جباههم وسمي      إلى المجد إلا كان خالي أو عمي

.....

ملاذي جلال الدين نجل محاسنٍ      فتى خلقت كفاه للجود والسطا  
حليف العفاف الطلق والنائل الجمُّ      كما العين للإبصار والأنف للشمِّ

وهي قصيدة طويلة<sup>(١)</sup> في أربعين بيتاً، تدلُّ على عمق التجربة الشعرية، وهو بعد لم يزل صبيّاً في عنفوان أيام شبابه.

وعلى الرغم من هذا الحماس المتأجج في نفس الشاعر، إلا أنه لم ترُق له هذه الحال، من الحروب والوقائع، والصدمات العنيفة بين قبيلته وأعدائها، مما اضطره إلى التفكير في ترك الحلة، وانتجاع مواطن غيرها لعله يرى فيها راحته واطمئنانه بعيداً عن النزاعات والصدمات المسلحة.

وكان الحافظ الكبير في دفع الشاعر إلى الهجرة عن دياره في العراق هو قتل خاله صفي الدين بن محاسن غيلة وهو في صلاته. وحدث فتن وقلقل بين طيء وسائر القبائل المجاورة، يشير إلى ذلك بقوله: «ثم جرّث بالعراق حروب ومحن، وطالت خطوب وإحن، أوجبت بُعدي عن عريني، وهجر أهلي، وقريني. بعد أن تكمل لي من الأشعار، ما سبقني إلى الأمصار، وحدثت به الركبان في الأسفار.»<sup>(٢)</sup>

وعبارته الأخيرة تشير بوضوح إلى التبكير في نيل الشهرة بالشعر، في مطلع حياته،

(١) انظرها في ديوانه: ط: العراق: ص ١١-١٣.

(٢) مقدمة ديوانه: ط: العلمية: ص ٦.

وكان يومئذ قد نيف على عشرين عاماً من عمره، أي في حدود سنة (٧٠٠هـ)، وكان لحادثة قتل خاله صفي الدين المذكور أثر كبير في نفسية الشاعر الشاب، فنظم قصيدته (سل الرماح) يفتخر بقومه الذين أخذوا بثأر خاله الصفي بن محاسن من آل أبي الفضل، سنة (٧٠١هـ)، يقول:

سلي الرماح العوالي عن معالينا  
وسائلي العرب والأترك ما فعلت  
لما سعينا فما رقت عزائمننا  
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد  
بضمّر ما ربطناها مسومة  
واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا  
في أرض قبر عبيدالله أيدينا  
عما نروم ولا خابت مساعينا  
دنا الأعادي كما كانوا يدينونا  
إلا لنغزو بها من بات يغزونا

ثم يمدح قومه بقوله:

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنةً  
تدرعوا العقل جلباباً فإن حميت  
إذا ادّعوا جاءت الدنيا مصدقةً  
وإن دعوا قالت الأيام آمينا

إننا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً  
بيض صنائعنا، سود وقائعنا  
لا يظهر العجز منا دون نيل مني  
ولو رأينا المنايا في أمانينا

يُيدي الخضوع لنا ختلاً وتسكينا  
حتى يصادف في الأعضاء تمكينا  
كم من عدوّ لنا أمسى بسطوتهِ  
كالصّل يظهر لنا عند ملّمسهِ  
..... الخ<sup>(١)</sup>.

ولم يكف الشاعر عن ذكر هذه الواقعة وذكر خاله المقتول في قصائد أخرى،

(١) الديوان: ط: العراق: ص ١٣-١٤.

كقصيدته اللامية في (وقعة الزوراء) التي ذكرها في الأبيات المتقدمة، يقول:

لمن الشوازب كالنعام الجفّل      كُسيّت حلالاً من غُبارِ القَسْطِ  
يبرزن في حلل العجاج عوايساً      يحملن كل مدرّع ومسرّيل  
فيذكر خلالها الصدر بقوله:

ما زال صدر الدست صدر الرتبة الـ      علياء صدر الجيش صدر المحفل  
لو أنصفته بنو محاسن إذ مشوا      كانت رؤوسهم مكان الأرجل  
بيننا تراه خطيهم في محفل      رحب، تراه زعيمهم في جحفل<sup>(١)</sup>  
وظل الحلي يذكر خاله هذا في قصائده، كقصيدته التي حَمَسَ فيها قصيدة  
قطري بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعا      من الأبطال ويحك لا تراعي  
وقصيدته النونية:

سلوا بعض تسألني الورى عنكم عني      فقد شاهدوا ما لم يروا منكم مني<sup>(٢)</sup>  
وأخرى كتب بها إلى صديق يعاتبه على خلف وعده في اشتراكه بهذه المعركة<sup>(٣)</sup>.  
وبذلك تكون هذه الواقعة (الزوراء) و(أخذ الثأر) من أهم المحفزات في حياة  
الشاعر لنظم القصائد الحماسية، في الفخر والاعتزاز بأمجاد قومه (السنبُسين  
الطائيين).

غير أن هذه الأوضاع والقلاقل والمحن التي واكبت حياته وهو في ريعان شبابه  
قد فرضت على نفسه الطامحة أن يرحل عن أهله وأقرانه، وأن ينتجع مكاناً آخر كما  
سبق أن أشرنا إلى ذلك، فقصد (ماردين)، وهي قلعة فتحت في زمن عمر بن الخطاب

(١) الديوان: ١٥.

(٢) الديوان: ١٨.

(٣) الديوان: ١٩.

- رضي الله عنه -، وكان عليها السلطان الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي بن أرتق.

وكان الصفي الحلي قد تعرّف هذه الديار عن طريق اشتغاله بالتجارة، فكان يرحل إلى مصر والشام وماردين وغيرها ثم يرجع إلى العراق، وكان في غضون هذه الرحلات يمتدح سلاطين هذه البلدان وملوكها وأعيانها.

ويبدو أنه وجد في حكام ماردين بغيته التي كان ينشدها، وإلا فقد مدح غيرهم، كالسلطان الناصر بن قلاوون<sup>(١)</sup>، كما مدح ابن الأثير، كاتب السرف في مصر<sup>(٢)</sup>.

ومن مدحه للناصر قوله:

أسبلن من فوق النهود ذوائباً      فتركن حبات القلوب ذوائباً  
وجلون من صبح الوجوه أشعةً      غادرن فود الليل منها شائباً  
بيضُ دعاهنَّ الغبي كواعباً      ولو استبان الرشذ قال: كواكباً

حتى قال في مخلصها<sup>(٣)</sup>:

عاتبته فتضرجت وجناته      وأزور الحاظاً، وقطب حاجبا  
فأراني الخد الكريم فطرفه      (ذو النون) إذ ذهب الغداة مغاضبا

وأراد بذئ النون: الحاجب، تشبيهاً له بالقوس، لأن النون مقوسة (ن)، وذو النون: يونس بن متى، وإشارته في الشطر الثاني إلى الآية: ﴿وذو النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى...﴾.

وكثيراً ما كان أهله وأخوته يلحون عليه أن لا يترك قبيلته وأقرانه، إلا أنه كان شديد الرغبة في الاستقرار والدعة، والعيش السليم، ويبدو أنه وجد ضالته في ملازمته

(١) «فوات الوفيات»: ٥٨١/١، و«النجوم الزاهرة»: ٢٧٥/٦.

(٢) «فوات الوفيات»: ٥٨٠/١.

(٣) «فوات الوفيات»: ٥٨٢-٥٨١/١.

سلاطين ماردين، والنزول عندهم، ويبدو من رسائله الشعرية التي كان يرسل بها إخوته وأصدقائه أنه تبرّم بالحياة القاسية في العراق، وأنه لن يرجع إلى تلك الحال التي وجد قومه عليها، ومن ذلك قصيدته:

قليل إلى غير اكتساب العلى نهضي      ومستبعد في غير ذيل التقى ركضي

يرسلها إلى أحد أقاربه من ماردين، ويعرض فيها بمدح سلطانها الملك المنصور<sup>(١)</sup>. وكتب بثانية إلى أحد بني عمه من ماردين - أيضاً - يقول فيها:

كلُّ الذين غَشُوا الوقيعةَ قَتَلُوا      ليس الفرارُ عليَّ عاراً بَعْدَما  
إن كنت أول من نأى عن أرضهم      ابعَدْتُ عن أرضِ العراقِ ركائي  
جبت البلادَ ولست متخذاً بها      حتى أنختُ بماردينَ مطيتي  
في ظلِّ مَلِكٍ مذ حَلَّتْ بربعه      أمسى لسان الدهر عني ألكنا<sup>(٢)</sup>

فالشاعر من خلال هذه الأبيات صريح بأنه ترك العراق فراراً من الأوضاع الشاذة التي تعيشها قبيلته، بعد أن أبلى مع أعدائه البلاء الحسن، وبعد أن أضمر له أعداؤه سوء النية لو ظفروا به. فلا بد له من أن يعيش بمنأى عن يد أعدائه، سالمًا من أذاهم. ولقد قنع بأن قلعة ماردين هي حصن له، ولأنفاسه الشعرية يزيحها لسلاطين (الأراتقة). وبذلك استطاع الشاعر (الحلي) أن يضع فيهم بثلاثة شهور ديواناً كاملاً في تسعة وعشرين حرفاً ببناء تسع وعشرين قصيدة أرثقية، اسمها (الأرتقيات) نسبة إليهم. وهذه الأرتقيات بناها على حرف من حروف المعجم يتبدىء البيت به، وينتهي قافية القصيدة به، ومن ذلك قوله في قصيدته - على قافية الجيم - التي أشار إليها ابن حجة في

(١) الديوان: ٢٠.

(٢) الديوان: ٢١.

«خزائنه»، وهو يتحدث عن المطالع، وينتقده عليه:

«وكذلك مطلع الشيخ صفي الدين الحلبي في قصيدته الجيمية التي هي من جملة القصائد الأرتقيات، التي امتدح بها الملك المنصور صاحب ماردین:

جاءت لتنظر ما أبقت من المَهجِ فَعَطَّرَتْ سَائِرَ الأرجاء بالأرجِ  
فالشطر الثاني ليس من جنس الشطر الأول، فإن الشطر الأول في الطريق الغرامية ليس له مثل»<sup>(١)</sup>.

لقد أنعم المصريون على الشاعر كثيراً، وشملوه بإنعامهم وبرّهم، ولكن إصراره على التغرب، وهجر الوطن كان رائده دائماً، ولقد عاد مرة من مصر وهو مشمول بالإنعام، فكتب إلى أخيه جواباً على نهيه إياه في التغرب<sup>(٢)</sup>:

فَقُلْ لِمَسْفَهٍ فِي البعد رأبي      وكنت به أصح الناس رايَا  
عذرتك لم تذق للعز طعماً      ولا أبدى الزمان لك الخفيا  
فما حر يسىغ الضيم حراً      ولو أحمت عزائمه الرمايا  
لذلك مذعلا في الناس ذكري      رميت بلاد قومي بالنسايا  
ولست مُسْفَهًا قومي بقولي      ولكن الرجال لها مزايا

إن مقام الشاعر في ماردین، جعله ينتهز المناسبات فيضعف فيهم المدح، ويتدخل في تحريضهم على قتال العدو، ويستنجد بهم على تحقيق مطالبه. وغير ذلك مما كانت تدعو إليه الحال، وهذه صور من المواقف التي استقيناها من ديوانه:

فله قصيدة يُجْرَضُ فيها السلطانَ الملكَ المنصورَ نجم الدين غازي بن أرتق - الذي وضع فيه الأرتقيات - صاحب ماردین على حضوره حصار قلعة أربل حين أرسل الجيوش، ولم يحضرها سنة (٧٠٢هـ): [من الرجز]:

(١) «الخزائنة»: ٧.

(٢) الديوان: ٢٧-٢٨.

أبْدِ سَنَا وَجْهَكَ مِنْ حِجَابِهِ فَالسَّيْفُ لَا يَقْطَعُ فِي قِرَابِهِ  
فَارِمٍ ذَرَى قَلْعَتَهُمْ بِقَلْعَةٍ تَقْلَعُ أَسْ الطُّودَ مِنْ تَرَابِهِ

وهي قصيدة طويلة تقع في ثلاثة وخمسين بيتاً<sup>(١)</sup>، وكانت النتيجة هي فتح إربل .

وقال يحرض السلطان الملك الصالح شمس الدين أبا المكارم بن السلطان الملك المنصور على خلاص ماله من لصوص نقبوا داره، وأخذوا ما بها، واحتموا بنائب له فحماهم، واستخدمهم لديه<sup>(٢)</sup>:

خَطْبُ لِسَانِ الْحَالِ فِيهِ أَبْكُمْ وَهُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ فِيهِ مَظْلُمٌ  
وَقَضِيَّةٌ صَمَّتْ الْقَضَاءُ تَرْفَعاً عَنْ فَعْلِهَا وَالْخِصْمَ فِيهَا يَحْكُمُ

وقال من أخرى يحرض السلطان الملك الصالح على التحرز من المغول ومنافستهم، عند اختلافهم، واضطراب أحوالهم، ويهنئه بعيد النحر<sup>(٣)</sup>:

لَا يَمْتَنِي الْمَجْدُ مِنْ لَا يَرْكَبُ الْخَطْرَا وَلَا يَنَالُ الْعَلَا مِنْ قَدَمِ الْحَذْرَا  
وَلَا يَنَالُ الْعَلَا إِلَّا فَتَى شَرَفَتْ خَلَالَهُ فَأَطَاعَ الدَّهْرُ مَا أَمْرَا  
كَالصَّالِحِ الْمَلِكِ الْمَرْهُوبِ سَطْوَتِهِ فَلَوْ تَوَعَّدَ قَلْبَ الدَّهْرِ لَانْفَطْرَا  
مَنْ آلَ أَرْتَقَ الْمَشْهُورِ ذَكَرَهُمْ إِذْ كَانَ كَالْمَسْكَ إِنْ أَخْفَيْتَهُ ظَهْرَا  
فَاسْعِدْ بَعِيدَكَ ذَا الْأَضْحَى وَضَحَّ بِهِ وَصَلَّ صِلْ لِرَبِّ الْعَرْشِ مُؤْتَمِرَا  
وَانْحَرْ عِدَاكَ فَبِالْإِنْعَامِ مَا انْصَلَحُوا إِنْ كَانَ غَيْرِكَ لِلْأَنْعَامِ قَدْ نَحْرَا

ولست أريد أن أستقصي في هذا المجال موقع الشاعر من الأرتقيين وإجزاء مديحه لهم، وتحريضه على قتال أعدائهم، ولعل ما لقي عندهم من البر والإكرام وحياة النعيم والسلام، هو الذي جعله يلتصق بهم هذا الالتصاق، على الرغم من أنهم لم يكونوا عرباً، بل كانوا من بقايا الأتراك السلاجقة الذين حكموا العراق حقبة من الزمن.

(١) الديوان: ٣٧-٣٩ .

(٢) الديوان: ٤١ .

(٣) الديوان: ٤٣-٤٥ .

لقد اتصل الشاعر خلال هذه الحقبة من حياته بالجزم الغفير من الأفاضل والأدباء، والأعيان، فاجتمع بابن سيد الناس، وأبي حيان، والصدر شمس الدين عبداللطيف الذي كان يعتقد أنه ما نظم الشعر أحد مثله مطلقاً. كما اجتمع هو والفيروزآبادي (٨١٧هـ) سنة (٧٤٧هـ) فقال فيه<sup>(١)</sup>: «اجتمعت سنة سبع وأربعين وسبعمئة بالأديب الشاعر، صفي الدين بن سرايا الحلبي - رحمه الله - بمدينة بغداد، فرأيته شيخاً كبيراً له قدرة تامة على النظم والنثر، وخبرة بعلوم العربية، والشعر، فغزله أرق من النسيم، وأدق من المحيا الوسيم...».

وكانت هذه الصفة، أعني شاعريته المتميزة مثار إعجاب كل الذين عاصروه، أو من جاء بعده، يقول الكتبي فيه<sup>(٢)</sup>: «الإمام العلامة القدوة الناظم النثر، شاعر عصره على الإطلاق، أصبح راجح الحلبي دونه ناقصاً».

وراجح الحلبي هذا أقدم من صفي الحلبي كان من مداح الدولة الأيوبية بمصر، توفي سنة (٦٢٧هـ)<sup>(٣)</sup>. كان لراجح هذا قدم راسخة في نظم الشعر، مشهوراً في عصره، فحين برز الصفي بزّه وأخذ مكانه، يقول الكتبي - أيضاً -: «وكان - يعني الحلبي راجحاً - سابقاً، فعاد على كعبه ناكصاً، أجاد القصائد المطولة والمقاطع، وأتى بما أخجل زهر النجوم في السماء، كما قد أزرى بزهر الربيع، تطربك ألفاظه المصقولة، ومعانيه المعسولة، ومقاصده التي كأنها سهام راشقة، وسيوف مسلولة»<sup>(٣)</sup>.

رحل الحلبي - شاعرنا - إلى العراق في غضون عام (٧١٢هـ)، وحصل للأراتقة - وهو بعيد عنهم - أن توفي الملك المنصور، وقام بعده الملك العادل بعد أبيه، ولكنه لم يلبث إلا قليلاً، فتوفي بعد سبعة عشر يوماً من سلطنته، فتقلد أمر السلطنة بعده أخوه شمس الدين أبو المكارم الذي نظم فيه القصائد (الصالحيات). ولم يصل الخبر

(١) «البلغة»: ٦٠.

(٢) «فوات الوفيات»: ١/٥٨٠، (ط: محمد محيي الدين).

(٣) «تاريخ مصر»: ابن إياس: ١/٨٠، و«النجوم الزاهرة»: ٦/٢٧٥، و«شذرات الذهب»:

١٢٣/٥.

ب وفاة المنصور صاحب ماردین لصفي الدين الحلي إلا بعد مرور مدة غير قليلة، فقصد ماردین، للتعزيزية، فوجد أن الأمر قد انتهى، وأن أموراً قد حصلت دون أن يعلم شيئاً عنها، فقدم قصيدة في مدح السلطان الملك المنصور الصالح شمس الدين أبي المكارم، وكان قد ولي بعد وفاة أخيه الملك العادل يقول فيها<sup>(١)</sup>:

دبت عقارب صدغه في خده وسعى على الأرداف أرقم جعده

.....

قرن يخاف قرينه من قربه أرمي الحصى من حافريه بمثله  
وأظل في جوب البلاد كأنني الصالح الملك الذي صلحت به  
أضعاف خوف محبه من بعده وأروع ضوء الصباح منه بضده  
سيف ابن أرتق لا يقر بغمده رتب العلاء ولاح طالع سعده

ثم يشير إلى أنه إنما تولى السلطنة بعد أخيه لشد أزره:

وإليك كان الملك يطمح بعده وشدت أزر أخيك يا هارونه  
حتى أحاط بنو الممالك كلها ثم يقول:

مرحى لمجدك عن وداد خالص لا كالذي جعل القريض بضاعةً  
وسوای يضمّر صابه في شهده متوقعاً كسب الغنى من كده

وفي قصيدته الرائية التي مدحه بها وهناه بالملك بعد أخيه، يعتذر له عن الانقطاع عنهم مدة، وكان قد نظمها مهنتاً بعيد الفطر المبارك، يقول في مطلعها<sup>(٢)</sup>:

من نفحة الصُّور أم من نفحة الصُّورٍ أحييتَ يا ريحُ ميتاً غير مقبور  
وهي طويلة من قصائده (الصالحيات) يقول في تلخيصها إلى مدح الملك

(١) الديوان: ٩٠-٩٣. (٢) انظرها في الديوان: ٩٣-٩٧.

الصالح:

وقائل إذ رأى الجنات عاليةً  
لمن ترى الملك بعد الله ! قُلْتُ له  
للصاحب التاج والقصر المشيد من  
فقال: تعني به كسرى؟ فقلت له:  
الصالح الملك المشكور نائله

والحور مقصورةً بين المقاصير:  
مقال مُنْبَسِطِ الآمال مسرور:  
أتى بعدلٍ برحب الأرض منشور  
كسرى بن أرتق لا كسرى بن سابور  
ورب نائلٍ مَلِكٍ غير مشكور

وحين يصل إلى الاعتذار يوجه أبياتاً غاية في الرقة والدماثة، فيقول:

أدعوك دعوةً عبدي وامقي بكم  
لا أدعي العذر عن تأخير قصديكم  
بل إن غداً طولُ بُعدي عن جنابكم  
رقت لتعرب عن رقي لمجدكم

يا واحد العَصْر فأسمع غير مأمور  
ليس المحبُّ على بُعدي بمعذور  
ذنبِي العظيم فهذا المدح تكفيري  
حُباً، وطالت لتُمحو ذنْبُ تقصيري

ويبدو لي أن الحلبي لم يمل عن الأرتقيين حباً في مفارقتهم، ولكنه كان يتطلع إلى توسيع دائرة صلاته بسلاطين العصر وأمرائه، ولذلك كان يسافر إلى مصر، ويخرج إلى الشام، ويرحل إلى العراق ثم يعود إلى الأراتقة، وفي جميع حالاته هذه يرسل بقصائده إليهم: في التهنته، والمديح، واستغلال المناسبات المفرحة، ليزج بشعره إليهم فيها، وفي عام (٧١٩هـ) ترد في الديوان قصيدة يمدح بها الملك الصالح، وكان قد اقترح عليه (الصالح) الوزن والروي، يشكو فيها الحلبي أمراً جرى له، بقول فيها<sup>(١)</sup>:

يا نسمة لأحاديث الحمى شرحت  
يقول خلالها، وهو يعرض محنته:  
يا باذل الخيل عفواً بعد عزتها

كم من صدور لأرياب الهوى شرحت  
وما جنت في الوغى ذنباً ولا اجترحت

(١) الديوان: ٩٩-١٠١.

ودعتكم وثنائي لا يودعكم  
أشدو بمدحك حباً وبي محن  
ما إن أفوه بشرح في المقال لها  
لا أذم الدهر في أمر رميت به  
لئن نأت عنكم يوماً جوانحنا  
وكل يوم مقالي عند ذكركم

وسرت لا بعدت داري ولا نزحت  
لو أن أسرها بالورق ما صدحت  
لكنها بلسان الحال قد شرحت  
ولا أقول حصاة الخط ما رشحت  
فإن أرواحنا في ربعكم جنحت  
يا ساكني السفح كم عين بكم سَفَحَتْ

ظلت هذه العلاقة وثيقة بين الشاعر والأرتقيين، يذكرهم أتى سافر، وأينما حلّ،  
وفي سنة (٧٢٠هـ) دخل الشام وبعث إلى السلطان الصالح بقصيدة يمدحه فيها<sup>(١)</sup>:

نمّ بسرّ الروض خفق الجناح      واقتدح الشرف زناد الصباح  
وحين وصل الصالح إلى الحجاز عام (٧٢٣هـ)، كان الشاعر في مصر، فبعث  
إليه بقصيدة مطلعها<sup>(٢)</sup>:

إنني ليطربني العذول فأنثني      فيظن أنني عن هواكم أنثني  
وفي سنة (٧٢٦هـ) دخل مصر، واجتمع بالقاضي علاء الدين بن الأثير، كاتب  
السر<sup>(٣)</sup>، ومدحه كما مدح السلطان الملك الناصر بقصيدة وازى بها قصيدة المتنبي التي  
أولها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا      اللابسات من الحرير جلابيا<sup>(٤)</sup>  
ومطلعها:

أسبلن من فوق النهود ذوائبا      فتركن جبات القلوب ذوائبا

(١) الديوان: ١٠٧.

(٢) الديوان: ١٠٨.

(٣) «الوافي» للكتبي: ٥٨٠/١.

(٤) «ديوان المتنبي»: (دار صادر): ١٠٩، وقصيدة الحلبي في الديوان: ص ٥٩.

يقول فيها:

وغربن في كلل فقلت لصاحبي: (بأبي الشمس الجانحات غواربا)  
وهي قصيدة من أجمل شعره المدحي، ولكنه يظل مرتبطاً بالصالح، فيكتب إليه  
بأبيات:

أجرّد كي أجرّد سيف مدحي      فينبو عن سواك به لساني  
وأنظم مدح غيرك والقوافي      تعضّ عليّ أطراف البنان  
فأظهر حيرة في بسط عذري      وأخفي ما يحن لكم جناني  
فإن أفعل تألمت المعالي      وإن أنكلّ تظلمت المعاني<sup>(١)</sup>

وفي الأبيات ما يدلّ على أنّه لا يريد أن ينقطع عن الأرائقة، وأنه يأمل دائماً في  
الرجوع إليهم، وإن طوّحت به الأيام، وفي الديوان مقطعات قصيدة يبعثها إليه، يتضح  
من خلالها شدة ميله إليهم، وارتباطه بهم<sup>(٢)</sup>، وحين أحسّ الشاعر بهذا البعد والانقطاع  
عنه زجّ إليه قصيدة طويلة يمتدحه فيها، ويعتذر من الانقطاع عنه، مطلعها<sup>(٣)</sup>:

ليالي الحمى ما كنت إلا لآليا      وحيد سروري بانتظامك حالياً  
ويقول فيها:

وما لي لا أسعى بمالي ومُهَجّتي      إلى من به استدركت روعي وماليا  
إلى ملك يخفي الملوك إذا بدا      كما أخفت الشمس النجوم الدراريا

ولكنّه دفع بقصائد رائعة في مدح (قلاوون) في مصر، فضلاً عن قصيدته التي  
عارض بها المتنبي، ومن ذلك قصيدته التي يمدحه فيها عند كسر الخليج:

خلع الربيع على غصون البانِ      حللاً فواضلها على الكثبان

(١) «ديوان الحلبي»: ١١٤.

(٢) انظر الديوان: ص ١١٤-١١٨.

(٣) الديوان: ١١٨-١٢١.

ونمت فروع الدوح حتى صافحت  
كفل الكثيب ذوائب الأغصانِ  
يقول فيها:

حتى إذا كسر الخليج وقسمت  
ساوى البلاد كما تساوى في الندى  
الناصر الملك الذي في عصره  
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره  
أمواه لجته على الخلجانِ  
بين الأنام مواهب السلطانِ  
شكر الأطباء صنيعه السرحانِ  
خروا لهيئته إلى الأذقان<sup>(١)</sup>

ولم يقف شعره على الناصر قلاوون بل مدح معه ثلاثة سلاطين ذكرهم في خطبة ديوان (الناصريات)، وفي الديوان قصائد ومقطعات في مدحهم.

و(الناصريات) قصائد مصرية، ولكن (المنصوريات) قصائد أرتقية، بدأها كما سبقت الإشارة بمدح الملك المنصور السلطان نجم الدين أبي الفتح غازي بن أرتق.

والشاعر في جميع ما تقدم من حياته، كان قد شغل نفسه بالمديح المادي، وبالصلوات بالسلطين والملوك، ولم يكن الاتجاه الديني أو الروحي قد ظهر في شعره، إلا في بعض المقطعات القصار في آل البيت أو صحابة رسول الله - ﷺ -، وليس بين أيدينا ما يعطينا الوقت الذي نظم فيه هذه المقطعات، ففي ديوانه إشارات إلى أنه قال في آل الرسول - ﷺ -<sup>(٢)</sup>:

يا عترة المختار يا من بهم  
أعرف في الحشر بحبي لكم  
يفوز عبد يتولاهم  
إذ يعرف الناس بسيماهم  
وقال:

يا عترة المختار يا من بهم  
فمن أتى الله بعرفانكم  
أرجو نجاتي من عذاب أليم  
(فَقَدْ أَتَى اللهُ بِقَلْبِ سَلِيمِ)

(١) القصيدة طويلة في الديوان: ٦٢-٦٥.

(٢) الديوان: الصفحات ٥٥-٥٩.

وقال في صحابة الرسول - ﷺ -:

قيل لي تعشق الصحابة طراً أم تفردت منهم بفريق  
فوصفت الجميع وصفاً إذا ضوع أزرى بكل مسك سحيق  
قيل هذي الصفات والكل كالـ دَرَبَات؟ يشفي من كل داءٍ وثيق  
فإلى من تميلُ؟ قلتُ: إلى الأربع لا سيما إلى (الفاروق)

غير أننا نعلم أنه دخل مصر سنة (٧٢٦هـ)، وكان دخوله مصر في هذه السنة أنه  
قصد الحج، وقد قال هو نفسه عن زيارته لمصر في هذه السنة: «فلما منَّ الله عليَّ  
بقضاء حجة الإسلام، وزيارة قبر النبي عليه السلام، قذف بي خوف بلادي إلى الديار  
المصرية، وأهلت بالمثل في الحضرة الشريفة الملكية الناصرية..»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نستطيع تحديد الوقت الذي نظم فيه قصيدته الرائية التي مدح بها النبي  
محمداً - ﷺ - وهو في المدينة المنورة:

كفى البدر حسناً أن يقال: نظيرها فيزهي . ولكننا بذاك نضيرها  
وحسبُ غصونِ البانِ أن قوامها يُقاسُ به مياؤها ونضيرها

ومن خلال هذه القصيدة النبوية يلمح القارئ أن ثمة معاناة قاسية كان يعيش  
الشاعر في أجوائها، وأنه يحمل في طيات نفسه همّاً ثقيلاً وعسراً من الحياة، وضيقاً  
من الدنيا، ولم يستطع التعبير عن ذلك كله إلا أمام قبر رسول الله - ﷺ -، فهو يقول:

فلو تحمل الأيام ما أنا حامل لما كاد يمحو صبغة الليل نورها  
سأصبر إما أن تدور صروفها عليّ وإما تستقيم أمورها  
فإن تكن الخنساء إنّي فخرها وإن تكن الزباء إنّي قصيرها

ثم ينتقل إلى ذكر المقصود - عليه السلام - ببراعة، مخلص:

وعاج بها عن رحل عاج دليها فقامت لعرفان المراد صدورها

(١) مقدمة الديوان: (صادر): ٦١.

إلى نحو خير المرسلين مسيرها  
لديه وحىً بالسلام بعيرها  
إلى خير مبعوث إلى خير أمة

غدت تتفاضانا المسير لأنها  
ترضى الحصى شوقاً لمن سبَّح الحصى  
إلى خير مبعوث إلى خير أمة

حتى يقول فيها:

ببشرى فلا أخشى وأنت بشيرها  
نداك فجاءت حالاتٍ نحوها  
يوازي الجبال الراسيات صغيرها  
لدكت ونادى بالثبور ثبيرها  
ستمحى وإن جلت وأنت سفيرها  
قضى خاطري ألا نجيب خطيرها  
مجيزاً بأن تمسي وأنت مجيرها  
عليك فأثرى من ذويه فقيرها  
ببردٍ إذا ما النار شبَّ سعيها  
على عصبةٍ يطغى عليّ فجورها<sup>(١)</sup>

أيا صادق الوعد الأمين وعدتني  
بعثت الأمانى عاطلاتٍ لتبتغي  
إليك رسولَ الله أشكو جرائمها  
كبائر لو تبلى الجبال بحملها  
وغالب ظني بل يقيني أنها  
وبين يدي نجواي قدمت مدحة  
تروم بها نفسي الجزاء فكن لها  
فلا بن زهير قد أجزت ببردةٍ  
أجزني أجزني واجزني أجر مدحتي  
بمدحك تمت حجتي وهي حُجَّتِي

ولقد تركت معظم أبيات هذه القصيدة لطولها، ولكن الذي يهمننا منها أنه يظهر شكواه، ويعترف بذنوب أثقلت كاهله، وأنه يرجو من رسول الله - ﷺ - أن يقبل الله تعالى بمدحه منه إنابته وتوبته على الرغم من عظم الجرم الذي يوازي الجبال الراسيات صغيرها.

ونظم الصفي قصائد أخرى في مناسبة مولده - ﷺ -، ومنها قصيدته:

خمدت لفضل ولادك النيران وانشق من فرح بك الإيوان<sup>(٢)</sup>

وفي هذه القصيدة يتجرد الشاعر من أموره الدنيوية، ويسوق معاني المديح النبوي

(١) الديوان: ٤٦-٥٠.

(٢) الديوان: ٥٠-٥٢.

تتري، ويضمنها أحداثاً وَاكبت سنة الميلاد الشريف، ومكان الرسول - ﷺ - بين إخوته من الأنبياء والرسل - عليهم السلام - . وفي أواخرها يعترف بقصوره عن أن يحيط بكل صفاته وأخلاقه - ﷺ - ، فيقول:

ولو انني وقّيت وصفك حقه  
فعليك من رب السلام سلامه  
وعلى صراط الحق آلك كلما  
وعلى ابن عمك وارث العلم الذي  
وعلى صحابتك الذين تتبعوا  
وشروا بسعيهم الجنان وقد دروا  
فني الكلام وضافت الأوزان  
والفضل والبركات والرضوان  
هب النسيم ومالت الأغصان  
ذلت لسطوة بأسه الشجعان  
طرق الهدى فهداهم الرحمن  
أن النفوس لبيعها أثمان

ثم ينهي القصيدة بالغرض النفسي الذي لا ينفك الإنسان يذكره أمام شفيع الأمة، ومنقذها - ﷺ - ، فيقول:

أشكو إليك ذنوب نفس هفوها  
فاشفع لعبد شأنه عضيانه  
فلك الشفاعة في محبيكم إذا  
فلقد تعرّض للإجازة طامعاً  
طبع عليه ركب الإنسان  
إن العبيد يشينها العصيان  
نصب الصراط وعلّق الميزان  
في أن يكون جزاؤه الغفران<sup>(١)</sup>

وأما قصيدته التي استعان منها بالبيت:

صلى عليك إله العرش ما طلعت  
في بديعته الكافية، فمطلعها:

فيروزج الصبح أم ياقوتة الشفق  
بدت فهيجت الورقاء في الورق  
وهي قصيدة مدحية في الرسول - ﷺ - ذكر كعاداته في المديح النبوي الرسول

(١) الأصوب أن يقول: (جزاؤه الغفران) بنصب جزاء؛ ليكون (الغفران) اسم (يكون)، ولكنه سها، أو هو خطأ مطبعي.

- ﷺ - وصفاته وأخلاقه، وموقعه بين الرسل - صلوات الله عليهم -، وفي آخرها يعد الرسول - ﷺ - بأنه سوف يصفيه المدح ما دام حياً، فيقول:

فلا أخلّ بعذر عن مديحك ما دام فكري لم يرتج ولم يعق  
فسوف أصفيك محض المدح مجتهداً فالخلق تفنى وهذا إن فنيت بقي<sup>(١)</sup>

ولقد صدق الشاعر وعده مع رسول الله - ﷺ - حين وضع قصيدته (الكافية البديعية) فيه، فقد تأخر نظمها بعد هذا الزمن، وقد أشار إلى القصيدة القافية المذكورة في شرح بيت (التفصيل) من الأنواع البديعية حين قال:

(صلى عليه إله العرش ما طلعت)

شمسٌ وما لاح نجمٌ في دجى الظلم

قال في الشرح: «صدر بيت القصيدة هولي بحاله في قصيدة أخرى في مدح النبي - ﷺ - أولها:

فيروزج<sup>(٢)</sup> الصبح أم ياقوتة الشفق بدت فهيجت الورقاء في الورق  
والبيت الذي أتيت بصدوره منها لثلاثي القصيدة من هذا النوع هو:

صلى عليه إله العرش ما طلعت شمسٌ النهار ولاحت أنجم الغسق<sup>(٣)</sup>

ثم نعود بعد هذه الوقفة الموجزة مع الصفي، وهو يزجي قصائده الدينية إلى النبي - ﷺ -، وصحابته وآله - رضي الله عنهم - إلى بقية عمره الذي قضاه بين سلطان مصر، وسلطان ماردين، وبلده العراق.

ويبدو أن السنوات التي تلت عودته من الحج، أي من بعد سنة (٧٢٦هـ) جعلته

(١) الديوان: ٥٤.

(٢) في الديوان: (ط: العلمية): في روج.

(٣) انظر فيما يأتي نوع (التفصيل) من البديع، وانظر «نفحات الأزهار»: ٣٠٤، و«خزانة» ابن حجة:

ينسج حبال الصلّة بين ملوك مصر وماردين بشكل ذكي، ففي الوقت الذي نراه يلازم السلطان قلاوون، يبعث سنة (٧٢٧هـ) بقصيدة إلى سلطان ماردين، وهو في دمشق يعتذر له عن الانقطاع<sup>(١)</sup>.

ثم بأخرى يمدحه ويهنئه بعيد النحر، ويصف ليلة مضت له، يقول في مطلعها:  
أهلاً بيدر دجى يسعى بشمس ضحى بنوره صبغة الليل البهيم محاً<sup>(٢)</sup>  
ثم يمدحه بقصيدة كافية عقيب مال تلف له بماردين، ويعرض بذلك سنة (٧٣٠هـ):

أيا ملك العصر الذي شاع فضله ويا ابن ملوك العرب والعجم والترك  
وينظم له قصيدة موشحية يهنئه بعيد الفطر سنة (٧٤١هـ) بوزن الدوبيت:

لما شدت الورق على الأغصان بين الورق  
ماست طرباً بهاغصون البان كالمغتبِق  
الطير شدا ومنظر الزهر بدا  
والقطر غدا يوليه جوداً وندا  
والجون حدا ومدّ في الجوردا  
والنرجس جفن طرفه الوسنان لم ينطبق  
بل بات إلى شقائق النعمان ساهي الحدق<sup>(٣)</sup>

ولم يتخل عن ذكره ومدّحه، فأرسل إليه من بغداد مدحةً، يقول:

ما هزني الريح إلا هزني الطرب إذ كان للقلب في مر الصبا أرب<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان: ٩٧.

(٢) الديوان: ١٠٣.

(٣) الديوان: ١٢٥.

(٤) الديوان: ١٢٧.

وطال مكث الصفي في مصر حتى سنة (٧٣٩هـ)، وكانت العلاقة بين مصر وسلاطين ماردين قد قويت، بفعل المخاطر المغولية التي كانت تواجههم، وكان لوجود الصفي بين الإماراتين أثر في تقريب وجهات النظر، وتوثيق العلاقات بينهما.

وموقع الصفي الحلبي في مصر - في هذه السنوات - كان موقعاً متميزاً، فقد حظي برعاية سلطان مصر، ورئيس وزرائه، ما لم يحظ غيره بها. وقد ذكر هو نفسه هذه الرعاية، فقال:

«وشملي من الإنعام ما فاجأني ابتداءً، ولم أملك له خبراً، ألزمتني المروءة بمكافأة تلك الحقوق، ورأيت كفرانها كالعقوق.. فنظمت في معاليه ما طاب لفظه ومعانيه، وظهرت آيات القوى فيه حسن تمكن سبكه وقوافيه. فلما صادفت وسائلتي فيه قبولاً، وهبت ريحُ سعدها قبولاً، أشار إلي رئيس وزرائه، وزعيم كتاب إنشائه عن إشارته العالية أن أجمع له جزءاً من جدِّ شعري وهزله، ورقيق لفظي وجزله. ليكون ديواناً للمحاضرة، ومجموعاً للمذاكرة. فأخترتُ منه ما يحب وبيتغي، وربَّته على ما يجب وينبغي. واقتضى الأدب أن أسم الكتاب بوسميه، وأشرف باب المديح بتقديم لقبه الشريف واسميه. فصيرت وليّ المديح كوسميه، وختمت به أبناء المدح كختم الأنبياء بسميه.

وجعلت فصول الأبواب فروعاً تتبع أصلاً، وجملة الكتاب اثني<sup>(١)</sup> عشر باباً تشمل على ثلاثين فصلاً..»<sup>(٢)</sup>.

فكان هذا الديوان الذي بين أيدينا اليوم.

وقد طبع أكثر من طبعة، من سنة ١٢٨٣هـ مروراً بالسنوات ١٢٩٧هـ و١٣٧٥هـ. وهذه الأخيرة أشار ناشرها في مقدمتها إلى أنه قابل بها النسخ المطبوعة سابقاً. ثم الأخيرة التي طبعت عام ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م في دار صادر - بيروت.

(١) جاء في عبارة الأصل: اثنا عشر، وهي أيضاً صحيحة إذا جعلنا الواو استثنائية أو حالية.

(٢) مقدمة الديوان: ٨٧.

وحين ترك الشاعر مصر راجعاً إلى العراق لم ينس أن يضع بين يدي السلطان «ابن قلاوون» قصيدة عصماء يمدحه بها، ويشيد بمكانه بين السلاطين. ثم يشير في أخرياتها إلى رحيله عن مصر، ويعتذر له عن هذا الرحيل الذي اضطر إليه بقوله<sup>(١)</sup>:

يا ذا الذي خطب المديح سماحه  
أقصيتني بالجود ثم دعوتني  
ضاعفت برك لي ولو لم تولني  
فنايت عنك ولست أول حازم  
علمي بصرف الدهر أخلى معهدي  
ولربما طلب الحريص زيادة  
فلئن رحلت فقد تركت بدائعاً  
فجميل صنعكم أجل صنائعاً

فنداه قبل نداي قد لباني  
فنداك أبعدني وإن أدناني  
إلا القبول عطيةً لكفاني  
خاف النزول بمهبط الطوفان  
مني وصرف في البلاد عناني  
فغدت مؤدية إلى النقصان  
غصبت فصول الحكم من لقمان  
وبديع فضلكم أدق معاني

ومع أننا نقف في ديوان شعره على قصائد لآل أرتق وابن قلاوون وكتاب سره، إلا أن ذلك لم يمنعه أن يمتدح سلاطين آخرين، كالسلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل ابن أيوب صاحب (حماة) عند وروده إليها وقد كان اقترح عليه بحراً وقافية، فنظم فيهما هذه القصيدة:

لا راجع الطرف باللقا وسنة  
طال على الصب عمر جفوتكم

إن ذاق غمضاً من بعدكم وسنة  
فكلُّ يومٍ من الفراق سنة

يقول فيها:

ولو بمدح المؤيد اعتبروا  
من آل أيوب الذين لهم

لبدلت سيئاتهم حسنة  
حماسة بالسماح مقترنه<sup>(٢)</sup>

ومن أولئك أيضاً الصاحب المعظم شمس الدين ابن عبشون المستوفي بسنجار،

(١) الديوان: ٢-٦٥.

(٢) انظرها في الديوان: ١٣٥-١٣٦.

وقد تلقاه بإقامة، وهدايا، فنظم فيه قصيدة شكر<sup>(١)</sup>. وكذلك شكر في قصيدة أخرى  
الصاحب المعظم فخر الدين إبراهيم بن عبدالله المصري صاحب الديوان بحلب<sup>(٢)</sup>.

ولم ينس الشاعر وهو في اغترابه وبعده عن أهله ووطنه وحلته الفيحاء أن يكتب  
بشعره إلى ذويه وأصدقائه، ويتشوق إلى الحلة الفيحاء، ومن ذلك قصيدته<sup>(٣)</sup>:

أخلاي بالفيحاء إن طال بعدكم      فأنتم إلى قلبي كسحري من نحري  
وإن يخل من تكرار ذكرى حديثكم      فلم يخل يوماً من مديحك شعري  
ويتألم خلالها على الربوع الفيحاء التي تركها وراءه فيقول:

بكيت لفقد الأربع الخضر منكم      على الرملة الفيحاء بالأربع الخضر  
سقى روضة السعدي من أرض بابل      سحاب ضحوك البرق منتحب القطر

ويذكر خلال هذه القصيدة الشيخ العالم مهذب الدين محمود بن يحيى النحوي  
الحلي، ويصف له حاله في ماردين، وإقبال سلطانها عليه:

فيا أيها الشيخ الذي عقد حبسه      تنزل مني منزل الروح من صدري  
إذا كان ذكر المرء شيخ حياته      فإن طريف المال كالواو في عمرو  
ولكن لي في ماردين معاشرًا      شددت بهم لما حللت بها أزري  
أسوق إلى البحر الخضم جواهري      وأهدي إلى أبناء بابل من سحري  
فمن فدتك النفس بالعدر منعمًا      عليّ وشاور حسن رأيك في الأمر

لقد كان تقلب الشاعر صفي الدين الحلي في البلاد كثيرًا ينتقل بين بغداد  
وسوريا، وماردين ومصر والحجاز، فكان يترك في كل هذه المواطن آثارًا حميدة من  
شعره، وحسن علاقاته، حتى ودّع الحياة وهو قد نيف على السبعين عاماً من عمره،  
سنة (١٧٥٠هـ)، فيقول الكتبي معاصره: «وكانت وفاته في أوائل سنة خمسين

(١) الديوان: ١٥٤ و ١٩٢.

(٢) الديوان: ١٥٥.

(٣) الديوان: ١٨١-١٨٣.

وسبعمئة<sup>(١)</sup> غير أن المترجمين له قد ذكروا سنوات أخرى في وفاته، كما اختلفوا في المكان الذي توفي فيه .

فقد نقل صاحب «النجوم الزاهرة» أنه توفي في سنة (٧٥٠هـ) كما ذكر الكتبي<sup>(٢)</sup>، في حين نقل ابن حجر في «الدرر الكامنة» سنة (٧٥٢هـ)<sup>(٣)</sup>، ووضع له تأريخاً بحساب الجمل وهو: «الجنة مأوى الصفي» وهو مجموع: «الجنة» ٥٧+٤٨٤ (مأوى) + ٢١١ (الصفي) = ٧٥٢هـ، وهي السنة التي أقرها الصفدي في «الوافي بالوفيات»<sup>(٤)</sup>، وأكدها كحالة في «معجم المؤلفين»<sup>(٥)</sup>، أما سركيس فقد وضع له في مقدمة اسمه سنتي مولده ووفاته (٦٧٧هـ - ٧٥٠هـ)، أي: هو يأخذ بسنة الكتبي التي ذكرها في الفوات<sup>(٦)</sup>. ولكن كتابه «العاطل والحالي» ثبت سنة (٧٤٩هـ) خلافاً لكل ما تقدم. أما خلفه في «كشف الظنون» فقد ذكر أن وفاته كانت سنة (٧٥٧هـ) حين ذكر له بديعته<sup>(٧)</sup>. ثم ذكر له سنةً أخرى بعيدة عن الواقع حين أورد اسم ديوانه في مَسرد الدواوين، فقال: «ديوان الصفي الحلبي عبدالعزيز بن سرايا. المتوفى سنة ٨٥٩هـ - كذا - تسع وخمسين وسبعمئة»<sup>(٨)</sup>، فقد أخطأ في عدد القرون رقماً، وصححه كتابةً، وهو - لا شك - خطأ مطبعي، ولكنه زاد سنتين آخرين على سنة (٧٥٧هـ).

ولعل الأقرب إلى الصحة هي سنة (٧٥٠هـ) كما ذكر الكتبي (٧٦٤هـ)، وأكَّدتها معظم المصادر الأخرى التي ترجمت له، إلا إذا ثبت أنه توفي في أواخر (٧٤٩هـ) كما ذكر في «العاطل». أما مكان وفاته فقد ذكرت مدينة (ماردين) ومدينة (بغداد)

(١) «فوات الوفيات»: ٥٩٤/١.

(٢) «النجوم الزاهرة»: ٢٧٥/٦.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٣٧١/٢.

(٤) مقدمة «العاطل والحالي» للحلي: ٥، و«البابليات»: ١٠٦/١.

(٥) «معجم المؤلفين»: ٢٤٧/٥.

(٦) «معجم سركيس»: ٧٨٩.

(٧) «الكشف»: ٢٣٣/١.

(٨) «الكشف»: ٧٩٧/١.

والأقرب إلى الصحة مدينة بغداد، وذلك أن الشاعر في السنوات الأخيرة من عمره  
اختلف إلى بغداد، وتردد بينها وبين ماردين والشام وبغداد. وفي سنة (٧٤٧هـ) رآه  
مجد الدين محمد بن يعقوب صاحب «القاموس المحيط» في بغداد، فقال في كتاب  
«البلغة»: «اجتمعت سنة سبع وأربعين وسبعمئة بالأديب الشاعر صفي الدين بن سرايا  
الحلي - رحمه الله - بمدينة بغداد، فرأيته شيخاً كبيراً. له قدرة تامة على النظم  
والشعر...»<sup>(١)</sup>. ولعله استقر فيها حتى سنة وفاته<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

---

(١) مقدمة كتاب «العاطل والحالي والمرخص والغالي»: ص ٥.  
(٢) انظر: «ريحانة الأدب»: ٣/٣٤٢، و«شعراء الحلة»: ٣/٢٧٠، و«أمل الأمل»: ٢/١٣٩،  
و«روضات الجنات»: ٥/٨٠-٨٣.